الأبعاد التداولية في قصيدة " إلى الشعب"
لـ :أبي القاسم الشابي

د/ جوادي هنية
جامعة بسكرة– الجزائر

ملخص:

يتناول هذا المقال موضوع الأبعاد التداولية في قصيدة "إلى الشعب" للشاعر أبي القاسم الشابي، ويرمي الكشف عن مختلف القيم التداولية التي تحملها المكونات اللغوية للقصيدة: كالأفعال الإنجازية واللواحق الإشارية، والصور المجازية، والبنى الحجاجية.. وهي عناصر غايتها التأثير في المخاطب واستمالته، باعتبار القصيدة خطابا منجزا وفق أحوال مقامية معينة وموجه إلى مخاطب معتد به، كشف الشاعر عن هويته في عتبة العنوان.

Résumé:

Le présent article traite un sujet qui concerne les dimensions du pragmatique dans le poéme « au peuple» écrite par l'auteur :abi-elkacem-Echabi, à travers cet article j'essaie de soulever les différents valeurs pragmatiques qui sont portées par les conposantes linguistique du poème telles que :les actions de réalisation accessoires d'allusion,les images figurées et les structures argumentaire. les éléments leur objectif est de faire l'impression sur l'interlocuteur et çoncilier son bien veillance (sa sympathie) étant donné que le poéme est un discours réalisé selon des situations précis et orienté vers un interlocuteur agressé le poéte a devoilé son identité au seuil du titre.

1– توطئة:

تكتسي المقاربة التداولية للخطاب الأدبي بوجه عام و الشعري على وجه التحديد أهميتها في الكشف عن خبايا النصوص وتجلية معانيها الثاوية خلف البنى السطحية للغة، وبيان ما تنطوي

عليه من قيم تداولية و أهداف تبليغية، وما تحيل إليه من مرجعيات معرفية واجتماعية ،فالخطاب الشعري خطاب نوعي ذو خصوصية، يحقق فعاليته عبر ما ينتجه من آثار في نفس المتلقي من خلال استخداماته الجمالية للغة، فهو يتوسل باللغة و بشتى الحيل الأسلوبية و التقنيات الفنية، وقد أمن له هذا التعاطي /الاشتغال فرادة وتميزا عن سائر الفنون الأخرى. لكنه فوق هذا وإضافة إلى وظيفته الشعرية التي يعتبرها رواد الشعرية الوظيفية الأساسية المهيمنة في هذا الخطاب، فإن له وظائف أخرى يضطلع بها، لعل أهمها الوظيفة الإقناعية، ما يجعل منه خطابا تداوليا أو مجموعة من الأفعال اللغوية الرامية إلى الحث و التحريض المعبر عنه بالأمر، النداء، والاستفهام، النهي...وتكون غاية هذه القوى الإنجازية التأثير في المتلقي/ المخاطب و تعديل قناعاته و مواقفه ،إذ إن الخطاب الشعري في بعده التداولي، يلتقي مع خطابات أخرى صادرة عن الإنسان ولا يختلف عنها كل الاختلاف، فهو مجموعة من الأفعال الأدائية، تضبطها جملة من العلاقات المنظمة لعملية التواصل، مثلما هو الأمر في التداولية pragmatique التي تضع قواعد للتأثير في المخاطب وتغيير سلوكه.

أسهم النزوع التداولي في النقد الأدبي إلى تحرير النصوص (الأدبية) من هيمنة المناهج النقدية النصية و جمودها و مبالغتها في عزل النصوص الأدبية عن مؤلفها و إطارها الاجتماعي والتاريخي.. وقد ساعدت المقاربة التداولية على الانفتاح على آفاق واسعة، تولى عناية بالمستوى التلفظي وبنوايا المتكلم ومقاصده و بالظروف المحيطة بإنتاج النص و تلقيه أي الاعتداد بالمخاطب وإن كان افتراضيا ،ومن ثم تجاوز بعض الهفوات التي وقعت فيها المناهج المذكورة سابقا.

– مرتكزات التواصل في القصيدة:

إن ما نعنيه بمرتكزات التواصل في قصيدة "إلى الشعب" (1) للشابي هي تلك البنى التجريدية– الأساسية– المهيكلة للعملية التواصلية، فبحضورها تنشأ علاقة التواصل (الافتراضية) التي ترمي إلى التأثير في المخاطب وإثارة اهتمامه ،و يمكن الوقوف على الأسس التداولية الآتية:

2–1 المتكلم / الشاعر: و يمثل الذات المنشئة للقول الشعري وغايته من إنشاء هذا الخطاب إيقاظ شعبه المستسلم لحياة الذل و الهوان، لذا يمكن موقعته في إطار حركة الإصلاح والتوعية التي كانت تعتلج بها نفوس شباب الأمة العربية في المغرب والمشرق ، من بعث لحركة الشباب المسلم

ودعوة ملحة لتجديد دماء الجهاز الثقافي التقليدي ومناصرة الحريات في الوطن العربي، كـ: حرية المرأة والحريات السياسية والاجتماعية ودعوة إلى التجديد في مجال الآدب والنقد.

يؤمن الشابي أن لقادة الفكر رسالة إنسانية نبيلة وفاعلة ،حاول جهده أن يحققها في أشعاره وأفعاله التي كرسها لخدمة مجتمعه على مدار حياته التي لم تكن طويلة.

لقد عاش الشابي تجربته بصدق وإخلاص كبيرين. وعبر عن شعوره تعبيرا واضحا وأصيلا مكنه من نقل أحاسيسه ومعاناته مع شعبه إلى نفوس متلقية ، ويمكننا الاستفادة في هذا الإطار من مفهوم التموضع إذ إن الشابي يضع خطابه الشعري الذي بين أيدينا ضمن الخطابات المناهضة للاستبداد بكل أشكاله والمعبرة عن مختلف الخصال التي عرف بها في عصره وهي صفات متغلغلة في أشعاره، يعبرعنها نص القصيدة بطريقة ضمنية غير مباشرة.

2-2 المتلقي/ الشعب: وهو الشعب التونسي المستسلم للطغاة المستبدين، إنه كاهن الظلام، الروح الشقي، عجوز الشعوب، الفيلسوف المحطم، الناسك القديس... الذي استبدل حياة الحرية والكرامة بحياة الخنوع واليأس، وبذلك فالشاعر يخاطب متلقيا معينا ويهدف إلى التأثير فيه وتحريكه بكل قوة وجرأة وإصرار على إفادته بنوره- ولو صدمه- وهذا ما نلمسه في خطاب العنوان الذي كان رسالة خاصة إلى الشعب

الشاعر ← القصيدة / إلى ← الشعب

2-3 القول:

2-3-1 القول /بنية لغوية: ويمثل القصيدة كبنية سوسيوفنية وجمالية وهي خطاب أدبي يمكن إدراجه ضمن قصائد الشعر الاجتماعي البناء الذي يعبر عن أصالة الشاعر وارتباطه الوثيق بمجتمعه، فالقصيدة رسالة قوية اللهجة موجهة من الشابي إلى شعبه التونسي الراسخ تحت نير الاستعمار والمستسلم لليأس والخمول.. نرى من خلال كثير من مؤشراتها اللغوية صورة ناطقة بإحساسه الوطني العميق وحرصه على تفحص عيوب أمتة و الحديث عنها صراحة، صراحة الرجل المدرك السليم من المرض.

لقد استعان الشاعر في التأثير على المخاطب ومحاولة استمالته بجملة من الأدوات الفنية كانتظام الإيقاع الذي تفرضه وحدة الوزن، واعتماد تفعيلات الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن) التي انسجمت وأحاسيس الشاعر وأجواء القصيدة ومراميها، وإن كنا نسلم بأن طبيعة المعاني، هي ما يفرض على الشاعر القالب الموسيقي، الذي يصب فيه ألفاظه. فالوزن المختار في هذه القصيدة لا يتسم بالقوة والصخب، بل يسري بهدوء تام وعلى مهل متواشجا وتجربة الشاعر المشوبة بالمرارة والحزن، إذ إنه يعرف أشد المعرفة حجم الألم الذي يعيشه الشعب.

لكن وعلى الرغم من التزام الشاعر وحدة البحر، إلا أنه حاول التنويع في القافية والروي بهدف تقوية حركة القصيدة وتكثيفها للتأثير في المخاطب وإحياء ما لا حياة فيه، فالإيقاع كما يذهب كثير من النقاد أحسن وسيلة لشد انتباه المتلقي (السامع) وإثارة مشاعره والتأثير في نفسه

والقصيدة من زاوية أخرى لها أبعاد رومانسية تفيض بإحساسات الألم والعذاب الروحي والحسرة على حالة البؤس والحرمان والجهالة التي يحي فيها المجتمع التونسي وامتزاج الموضوع بالطبيعة واشتماله على رموزها: الظلام، النور، العواطف ، الأنواء، الورد، الشعب، التراب، الوادي، الربيع، الزهر، الفجر... وميل الشاعر إلى تشخيصها، اتجاه جديد في الشعر العربي، ظهر على أيدي شعراء المهجر ومن حاكاهم وسار على دربهم في مشرق الوطن العربي ومغربه.

كان لتشخيص الطبيعة من جماد ونبات دوره في تجليه انفعالات الشاعر، فهو ينفعل، فتتولى صوره البيانية احتضان مشاعره و أحاسيسه و إبرازها في ثوب معنوي محسوس مفعم بالمعنى، كما أدت التراكيب في القصيدة دورها في التأثير فى المتلقي وإمتاعه وجعله يتفاعل مع أقوال الشاعر، نظرا لما تمتاز به من يسر وانسيابية و توظيف كثيف للنعوت والإضافات وهي في مجملها عناصر مكنت أشعار الشابي من الخلود في الذاكرة العربية .

2-3-2 موضوع القول: يتصل القول في قصيدة الشابي بالواقع الاجتماعي للشعب التونسي الرازخ تحت وطأة المستعمر الفرنسي، وإن كان الشاعر قد نزع في بعض الأبيات من القصيدة إلى التعميم و الإطلاق و الحكمة الإنسانية المجللة بالمشاعر و الأحاسيس النبيلة.

يصور النص استسلام الشعب لحياة الذل والعبودية واكتفاءه بالعيش البسيط، فهو لا يسعى لتغيير واقعه و لا يكافح أبدا في سبيل الحياة الكريمة، ففي الوقت الذي يمر فيه موكب الحياة طالعا من كل أنحاء المعمورة. تحذوه آمال التغيير والتجديد والحلم بمستقبل زاهر، يقف هذا الشعب مسلوب الإرادة يشغف بماضيه و عاداته البالية منشغلا عن قضاياه المصيرية، لذا سرعان ما تدوسه عجلة الزمن و يتلاشى في أجواء التاريخ والحضارة ،من هنا يعمل الشابي جاهدا على تغيير نظرة شعبه للحياةولحركة التاريخ من حوله .

2-4 سياق التلفظ /السياق الخارجي: القصيدة إفراز من إفرازات الواقع الاجتماعي والسياسي و النفسي- في تونس- وما يشيع فيه من استسلام وخضوع وعدم شعور بالمسؤولية اتجاه الذات والوطن و فقدان روح الجد و الإيمان بقيم التغيير والانعتاق من قيود العبودية.

ينسج الشاعر خطابه الشعري من رحم الواقع، ويسعى إلى التأثير في شعبه و توعيته بأوضاعه ويسخر خلاصة تجربته وتأملاته في الحياة لخدمة شعبه، وما يزيد من قوة العلاقة التواصلية بين الشاعر (المتكلم) والشعب (المخاطب) هو وعي الشاعر الكبير بحجم الآلام التي يعيشها _فآلامهما واحدة-، لذلك نجده يحرص كل الحرص ويلح كل الإلحاح على أن يتخلق شعبه بأخلاقه ويفكر بطريقته ويمتلك عزيمته ،ومن ثم يرتبط السياق التداولي لنص "إلى الشعب" بالسياق الاجتماعي والأنثربولوجي الذي ظهر فيه، وهو ما يحدد بدقة مناسبة أفعال الكلام التي تتضمنها(القصيدة)، ودلالات الخطاب التي تنطوي عليها، كما يساعد السياق المتلقي على فهم النص وفك شفراته وتحديد مقاصد المتكلم وغايات خطابه المنجز.

و يمكن أن نمثل لأهم المرتكزات التواصلية في قصيدة " إلى الشعب" للشابي بالترسيمة الآتية:

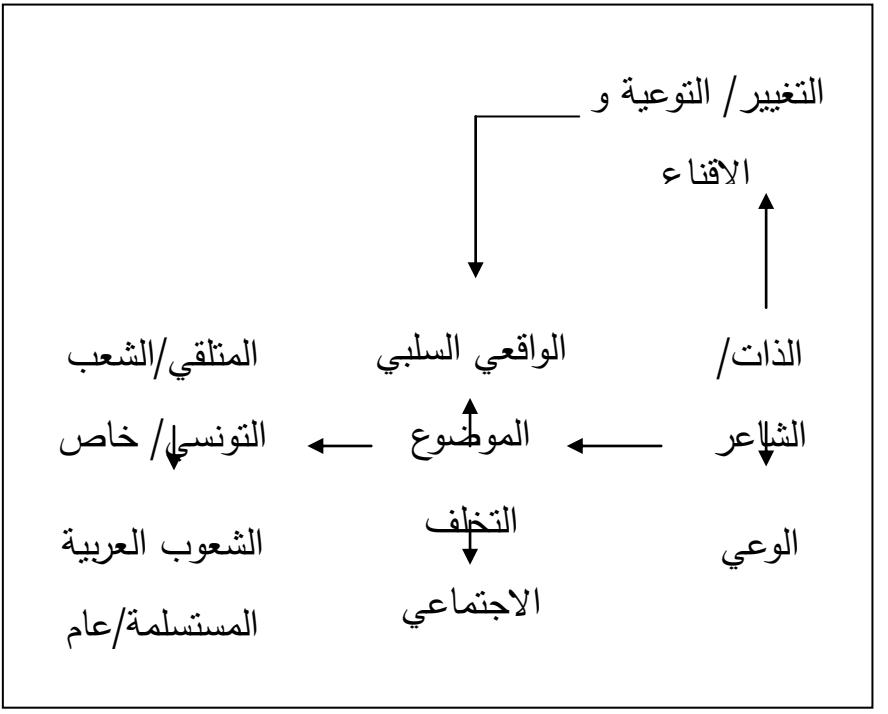

بر الشابي في هذه القصيدة عن موقف فردي ،يرتبط به كذات منشئة لهذا الخطاب الشعري، إنما يجسد كذلك موقفا اجتماعيا و نفسيا، فهو يخاطب الشعب التونسي و كأنه جزء لا يتجزأ منه، ويحاول خلخلة الذات الوطنية النائمة فيه وإطلاعها على حقيقة أوضاعها المتردية، ويقسو كل القسوة في شرح عيوب المجتمع حين يرمي شعبه: بالغباوة والكسل وفقدان المسؤولية والتشبث بأهداب ماض ولى.. ويكون القصد من كل هذا و ذاك إعادة الحياة وروح الأمل لشعبه وهديه إلى دروب المجد المضيئة حتى يتسنى له النهوض لبناء مجتمعه وإثبات وجوده.

3- القيم التداولية:

يروم هذا المبحث التعرف على أهم البنيات اللغوية التي تضطلع بالعملية التواصلية في القصيدة الآ وهي الأفعال الإنجازية (الأدائية) التي تعد حجر الأساس في إقامة دعائم التواصل بين الشاعر

والمخاطب، مما يجعل من نص القصيدة خطابا شعريا تداوليا ،كما يحاول التطرق إلى أهم الإشاريات الواردة فيها ،باعتبارها علامات لغوية ذات ارتباط مباشر بتبليغيه الخطاب الشعري .

3-1تداولية الأفعال الكلامية:

3-1-1 الأمريات:

وتسمى أيضا التوجيهات، لأن المتكلم يوجه فيها خطابه للمخاطب ليحمله على فعل شيء ما، ويكون اتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات وتشترط الإخلاص: الذي يتمثل في الرغبة الصادقة والإرادة الحقيقية للعمل وتشمل كل من الأمر، الاستفهام، النداء، النصح والإرشاد، الحض، الدعاء ..وغيرها(2).

من صور الأفعال الأمرية في القصيدة ما ورد على لسان الشابي، عندما أحس بأن جذوة الحياة قد خمدت في شعبه، فاستسلم لليأس والخمول ،حيث خاطبه ليحثه على ضرورة اليقظة و النهوض، وإن كان الأمر قد تم بطريقة غير صريحة، إذ يقول:(3)

فالزم القبر..فهو بيت شبيه * بك في صمت قلبه و خرابه
و اعبد الأمس و ادكر صور* الماضي، فدنيا العجوز ذكرى شبابه

ويقول في مقطع آخر.(4)

فاحذر السحر أيها الناسك * إن الحياة يغوي بهاها.
وتمل الجمال في رمم الموتى * بعيدا عن سحرها و صداها
وتغزل بسحر أيامك الأولى * و خل الحياة تخطو خطاها.

فإذا ما أمعنا النظر في التراكيب الإنشائية (الأمرية) الواردة في المقطعين الشعريين والمتمثلة في: الزم القبر –اعبد الأمس – ادكر صور الماضي– احذر السحر– تمل الجمال في رمم الموتى– تغزل بسحر أيامك الأولى– خل الحياة... فإننا نجد الأمر فيها لم يأت على سبيل الاستعلاء والإلزام، أي طلب الفعل من الأعلى إلى الأدنى على وجه الوجوب، لأن الشاعر في حقيقة الأمر لا يطلب من شعبه القيام بهذه الأفعال، فالمتأمل في سياق القصيدة وقرائن الأحوال، كالحالة النفسية للمتكلم،

يدرك أن الأمر انصرف عن معناه الأصلي إلى معنى الحسرة و اليأس، اللذين يعتصران قلب الشاعر المسكون بهاجس توعية شعبه وإفادته بنوره، وقد أدى هذا الانزياح الدلالي للأفعال الأمرية إلى زيادة تحفيز المخاطب/ الشعب على ضرورة إصلاح حاضره والتطلع إلى مستقبله، بدل الانكفاء على الماضي.

وحينما يطلع الموكب الإنساني من كل الأمكنة تحذوه آمال كبيرة في بناء مستقبله الزاهر، يخاطب الشاعر شعبه المستغرق في ظلام الجهل: بأن يكسر طرفه للنور الساطع، وأن يحذر فتنته، لأن النور ذو أهوال، يشق على الضعفاء العاجزين – أمثاله– عن تحقيق طموحاتهم.

فأغضض الطرف في الظلام و حاذر * فتنة النور فهي رؤيا مهوله(5)

ويظهر توظيف الأمر في خاتمة القصيدة، حيث يأمر الشاعر شعبه بمغادرة الوجود إذا مابقي على تقاعسه، لأن الوجود يستغني عن المتقاعسين الذين لا شغف لديهم بالحياة الكريمة، وهو أمر

–كسابقه– يرمي إلى تحريك الشعب وحثه على كسر قيود العبودية، واللحاق بركب التاريخ والحضارة إذ يقول:(6)

أنت لا شيء في الوجود * فغادره إلى الموت فهو عنك غني.

ومن زاوية لها اتصالها بالغرض الإنجازى لأفعال الأمر الواردة في الأمثلة المختارة، استعان الشاعر ببعض الصور المجازية "دعم بها" "القوة الإنجازية للأمر"، وكانت بمثابة محفزات. للمخاطب– على الصحوة من الغفلة والتفاعل ومستجدات العصر..

ومن الصور الواردة في هذه النماذج: التشبيه، فقد شبه الشاعر الشعب التونسي بالقبر في وحشته وصمته وبالعجوز المقعد الذي يملأ حاضره بذكريات الماضي وصوره، وهو في نظره مثل الناسك القديس المنشغل عن الحاضر والمستقبل، بالغيبيات مستغنيا بما مضى عن راهن يصنعه بيديه، حتى يبقى على قيد الحياة..و هذا أقصى طموحه، ولأن لشاعر يخاف أن يتلاشى شعبه في أجواء التاريخ والحضارة ويحرص على إنقاذه من السقوط وتعديل موقفه، نجده يأتي بأوامره ضمن بنيات ذهنية مجازية ذات دلالات كثيفة تنبئ عن مواقف الشاعر الرافضة لسلبية الواقع، وتهدف إلى

إثارة المخاطب وتعديل موقفه، ليمتثل لأوامر المتكلم، فأسلوب الأمر في القصيدة التي بين أيدينا على غرار الأساليب البلاغية العربية، ليس مجرد دلالة أو معنى لغوي ،إنما هو فعل أدائي تداولي، يرمي إلى إنتاج موقف ما والتأثير في المخاطب.

يدعم الشاعر القوة الإنجازية للأفعال الواردة في القصيدة ببعض الأساليب الإنشائية الطلبية كـ: توظيفه للنداء الذي يعني توجيه الدعوة إلى المخاطب و تنبيهه للإصغاء و سماع ما يريد المتكلم(7) واستعمل أداة النداء " يا" أعم حروف النداء و أكثرها تداولا و ملاءمة للموقف الشعري، وقد ورد النداء متعددا مرفوقا بالاستفهام ،الذي جرى تكراره تقوية و تأكيدا لرغبة التواصل وإثارة المخاطب

يقول الشابي:(8)

أين يا شعب قلبك الخافق * الحساس؟ أين الطموح و الأحلام؟
أين يا شعب روحك الشاعر* الفنان أين الخيال و الإلهام؟
أين يا شعب فنك الساحر * الخلاق؟ أين الرسوم و الأنغام؟

و يقول في مقطع آخر للقصيدة:(9)

فلماذا تعيش في الكون يا * صاح وما فيك من جنى يستفيده

لا غرو أن تعدد النداءات (يا شعب) وتكرارها وكذا تعدد الاستفهامات "بأين" يدل على اهتمام الشاعر بمن يخاطب ،و حرصه على لفت انتباهه إلى المضمون القضوي الذي يريد إيصاله- ويلح على ذلك- فالشاعر يريد أن يكشف لشعبه عن تناقضات الواقع، وعن الخلل الذي أودى بكل مظاهر الحياة الجميلة في وطنه ، فجعل منه صحراء أحزان.

إضافة إلى ماسبق، تشيع في القصيدة التراكيب الاستفهامية، وقد عبر بها الشاعر عن حيرته وانشغاله المرير بواقع شعبه المرير

يقول الشابي مخاطبا شعبه مستثيرا همته:(10)

أي عيش هذا وأي حياة؟ * رب عيش أخف منه الحمام

أي سحر دهاك هل أنت * مسحور شقي؟ أو مارد يتهكم

ويوظف الشاعر أسلوب العرض ومعناه طلب الشيء بلين و رفق،(11) حيث يقول:(12)

يا إلهي أما تحس أما * تشدو؟ أما ما تشتكي؟ أما تتكلم؟

ينبئ تعدد الاستفهام (أي عيش؟ أي حياة؟ أي سحر؟، هل أنت ؟) و كذا تعدد العرض وتواتره دون فاصل بين تراكيبه (أما تحس، أما تشدو، أما تشتكي، أما تتكلم) عن اهتمام الشاعر بأحوال مخاطبه كما يحمل رغبته الجامحه في إثارة مثل هذه الانشغالات المصيرية، في ذهن شعبه المستسلم ليأسه، فيحرضه بذلك على الصحوة واليقظة للحاق بموكب الإنسانية الطالع من كل مكان.

3-1-2 التقريريات: وتمثل الضرب الثاني من الأفعال في القصيدة وتشمل الأفعال التي تصف الوقائع و الحقائق في العالم الخارجي، و تنقل أحوالها نقلا أمينا، ويكون اتجاه المطابقة فيها على خلاف التوجيهات، من الكلمات إلى العالم، و شرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة و التعبير الصادق عنها، وإذا ما تحققت الأمانة في النقل، تحقق شرط الإخلاص، وأنجزت الأفعال إنجازا ناجحا، وإلا اعتبرت لا معنى لها(13)

وظف الشاعر هذا النوع من الأفعال للإخبار عن حالة شعبه الذي استسلم لليأس والقنوط وانطفأت جذوة الحياة فيه، و حين أقبلت عليةالدنيا ألفته في غفلة من أمره، لم ينعم بفصولها و لم يبتهج لأزمنتها الجميلة، و حينما دوت العواصف و الأنواء و دكته الشدائد و المحن لم يقو على مواجهتها، فناشته براثن الأعداء و جرفه نهر الزمن إلى حيث الفراغ و الصمت ،يقول الشابي:(14)

قد مشت حولك الفصول * وغنتك، فلم تبتهج، ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء* حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك * فلم تضطرب ولم تتألم
مل نهر الزمان أيامك * الموتى، وأنقاض عمرك المتهدم
أبدا يرمق الفراغ بطرف * جامد لا يرى العوالم مظلم.

والمتمعن في الأفعال الواردة في هذا النموذج الشعري يرى أنها تتراوح بين الزمن الماضي (مشت، غنتك، دوت، أوشكت، أطافت، ناشتك، مل) و الحاضر (لم تبتهج، لم تترنم، لم تتحطم، لم تتألم، لم تضطرب، يرمق، لا يرى..) وقد جاءت رصدا لواقع الشعب/ المخاطب في ماضيه وحاضره وتصويرا دقيقا لحالة انكفائه على الذات وعدم التفاته إلى نواميس الطبيعة وحركة الكون من حوله.

هذا وقد استعان الشاعر بالنفي لما يتوفر عليه من قوة بلاغية حيث ورد متعددا في الأبيات إمعانا في تأكيد معاني الخمول ،و التقهقر التي عليها الشعب التونسي، فقد نفى عنه الشاعر: الابتهاج والترنم، الاضطراب التألم و الرؤية الثاقبة، فرسم بذلك مناخا كئيبا خاليا من الإحساس بالجدوى.

كما تحمل مؤشرات لغوية منتشرة في هذا المقطع الشعري أبعادا رمزية تومئ إلى ظلال الفكرة في نفس المخاطب، حيث يتحول الموت، الخواء، الآلام العواصف، الأنواء، الفراغ، مظلم وغيرها من رموز الطبيعة إلى علامات دالة على بؤس الشعب وشقائه في الحياة.

وضمن نمط الأفعال الإخبارية، يصف الشاعر حركة الحياة والطبيعة، فيرصد الخطى الحثيثة للموكب الإنساني، ومسارعته لصناعة مستقبله الزاهر بكل عزيمة وثبات، حيث يقول:(15)

تتغنى الحياة بالشوق و العزم * فيحي قلب الجماد غناها
والربيع الجميل يرقص فوق* الورد والعشب منشدا تياها
والربيع الفنان شاعرها * المفتون، يغري بحبها وهواها
ومشى الناس خلفها يتملون* جمال الوجود في مرآها

يهيمن على زمن الأفعال الواردة في المقطع الشعري الزمن الحاضر، فهي أفعال مضارعة ذات طاقة إنجازية تنبض بالحركة و التجدد و الاستمرار في الزمن (تتغنى ،يحي ،يرقص، يتملون ،يغرى..) ترمي إلى التأثير في المخاطب ،ولفت انتباهه إلى حركة الكون و الطبيعة و الناس من حوله ،فقد بدا للشاعر أن كل شيء في الوجود حي عطوف ،يؤنس الكون بنشاطه و حيويته إلا شعبه المستسلم للغفلة و الانحسار على الفعل ،فعل النهوض بالذات لبناء المجتمع و التفاعل مع الآخر.

ويأتي الشاعر في أبيات أخرى من القصيدة بنقيض هذه المعاني والصفات، ينعت بها شعبه المستغرق في غياهب الجهل والظلام ،المتقاعس عن اللحاق بموكب الإنسانية العامر بقيم الحرية وروح التغيير، ويكون قصده من هذه المقارنة الضمنية بين حركة الكون ونواميس الطبيعة المختلفة وبين شعبه، هو محاولة التأثير في المخاطب وتحذيره من خطر الانغلاق وعدم مواكبة الأمم وحركة الحياة والعصر.

يقول الشابي:(16)

كل شيء يعاطف العالم * الحي و يذكي حياته و يفيده
كل شيء إلاك حي عطوف* يؤنس الكون شوقه و نشيده
أنت قلب لا شوق فيه و لا* عزم و هذا داء الحياة الدوي
أنت دنيا يظلها أفق * الماضي، و ليل الكآبة الأبدي
مات فيها الزمان و الكون إلا * أمسها الغابر القديم القصي

وحتى يؤثر في مخاطبه وظف الشاعر التكرار (كل شيء)، (أنت) لما له من قيم تداولية تشي بمدى اهتمام المتكلم بالمخاطب ،حيث استعان بهذا الأسلوب لتأكيد الفكرة المراد توصيلها لشعبه، والمتمثلة في تحريضه على الثورة وضرورة صحوته من سباته العميق الذي طال أمده.

صاحبت الأفعال التقريرية في القصيدة مجموعة من الإشارات، وظفها الشاعر حتى يمكن لخطابه في ذهن المتلقي، فيحقق بذلك الأغراض التواصلية التي يتوخاها (المتكلم) ،ومن الظواهر اللافتة للنظر في القصيدة بوجه عام: توظيف الحال ، النعت..

يشيع توظيف الحال بمختلف صورها لما لها من قيمة تداولية لها ارتباطها بالخطاب –أي بأداء اللغة– و سبل تبليغه للرسالة، و يمكن أن نقف على الأمثلة الآتية و قد وردت في المقطع الخامس من القصيدة.

يقول الشابي:(17)

والربيع الجميل يرقص فوق * الورد و العشب منشدا تياها

وإذا مرت الحياة حواليك * جميلا كالزهر غضا صباها
ومشى الناس خلفها، يتملون * جمال الوجود في مرآها
والربيع المفتون شاعرها* المفتون يغري بحبها وهواها

والحال في قوله: منشدا، تياها، جميلا، غضا ... وردت حال مفردة أما في قوله يتملون، يغري بحبها،فقد وردت جملة فعلية.

ما من شك في أ ن الحال بمختلف أنواعها في الأمثلة المختارة زادت المعنى وضوحا وبينت هيئة صاحبها (الربيع، الناس) أثناء حدوث الفعل، وجعلت المخاطب يدرك أن كل شيء حوله حي عطوف يؤنس الوجود بحركته وحيويته: من نواميس الطبيعة المختلفة إلى الإنسان في كل مكان.. إلا هو (الشعب/ المخاطب) لا يزال يقبع في دائرة الجهل و الظلام غير آبه بحركة الكون من حوله.

كما يشيع أيضا توظيف النعوت ضمن التقريريات الواردة في القصيدة، لما لها من أبعاد تداولية، تتصل بالأداء اللغوي للخطاب ،ومن أمثلتها، ما انساب على لسان الشاعر في وصف الطبيعة الغناءة حول شعبه المستغرق في ظلام البؤس و الحرمان:

وإذا هبت الطيور مع الفجر* تغني بين المروج الجميلة
وتحي الحياة، والعالم الحي* بصوت المحبة المعسولة
والفراش الجميل رفرف في * الروض، يناجي زهوره المطلوله
وأفاق الوجود للعمل المجدي * وللسعي، و المعاني الجليلة
وصباح الحياة لا يوقظ الموتى * ولا يرحم الجفون الكلية (18)

ويحضر النعت في المقطع السابع من القصيدة بكثافة، ما يؤكد مدى اهتمام الشاعر بقوته الإنجازية.

أنت يا كاهن الظلام حياة * تعبد الموت ...، أنت روح شقي
كافر بالحياة و النور..لا * يصغي إلى الكون قلبه الحجري
أنت دنيا يظلها أفق * الماضي، وليل الكآبة الأبدي
مات فيها الزمان و الكون * إلا أمسها الغابر،القديم، القصي (19)

يتكئ الشاعر في الأبيات المختارة على النعوت (مفردة، جملة) لبيان و توضيح الحالة المتدهورة التي يعيشها شعبه، ويتخذ من وصف الطبيعة مطية لذلك، فيتحدث عن المروج الجميلة، المحبة المعسولة، العالم الحي، الفراش الجميل، العمل المجدي المعاني الجميلة.. وهي في مجملها أوصاف جميلة حاول الشاعر أن يغري بها مخاطبه حتى يقبل على الحياة إقبالا حقيقيا يضمن له البقاء بين الأمم العظيمة.

ويصف في المثال الثاني شعبه (روح شقي، قلبه حجري، يظلها أفق ... الكآبة الآبدي) وقد يتعدد النعت كما في قول الشاعر في البيت الأخير من الأبيات المختارة: الغابر، القديم ،القصي..

4- تداولية الإشاريات:

الإشاريات علامات لغوية ذات قيم تداولية من حيث اهتمامها المباشر بالعلاقة بين تركيب اللغات و السياق الذي تستخدم فيه، فهي ذات ارتباط مباشر بالعملية التبليغية والخطاب (20).

يجمع هذا المفهوم اللساني مختلف العناصر اللغوية التي تحيل مباشرة على المقام، من حيث وجود الذات المتكلمة، أو الزمن أو المكان، حيث ينجز الملفوظ المرتبط به معناه، ومن الإشاريات: الضمائر، الظرف وتوجيه الانتباه إلى موضوعها من خلال الإشارة إليه.(21)

من الإشاريات التي سجلت حضورها بقوة وكثافة في نص الشابي: الإشاريات الشخصية، فقد كان لها دور ريادي ومهم في تجليه مقاصد الشاعر وفي التأثير في المخاطب وضمان تأثره واستجابته إذ إن " تحقيق الفاعلية في اللغة واستعمالها، يعني الحديث عن الضمائر التي تلعب دور تحويل اللغة إلى ممارسة ونشاط فردي من خلال الاستعمال، حيث إن المتكلم حين يملك اللغة ويتحكم فيها ،يجعلها من إمكاناته، وينصب نفسه في مرتبة عالية ضمن العملية التخاطبية ولا يتحدث إلا لشخص أمامه". (22)

إن هذا الشخص المخاطب / الذي يخصه الشابي بالحديث ،هو شعبه المستسلم لحياة الركود في زمن الصحوات واليقظات الفكرية والاجتماعية ،لذا كان لتوظيف ضمير المخاطب "أنت" دوره في تجلية ما يرمي إليه الشابي من غايات وأهداف وهذا ما سنحاول أبرازه في المباحث الجزئية الآتية:

-الأنا والأنت:

تولي الأنا اهتماما بالغا بالمخاطب (الأنت)، وتحرص كل الحرص على إثارته واستمالته وامتثاله بما تحض عليه (الذات/ الأنا)، فقد ورد الضمير المنفصل "أنت" مكررا ومتعددا في أغلب مقاطع القصيدة ،و يمكن أن نمثل لذلك بالتراكيب الاتية:

أنت لا ميت فيبلى
هل أنت مسحور..؟
آه بل أنت في الشعوب عجوز
أنت داء..
أنت فقر جهنمي..
أنت يا كاهن الظلام ..
أنت قلب لا شوق فيه ..
أنت دنيا يظلها أفق الماضي ..
أنت لا شيء في الوجود..

يتصدر ضمير المخاطب " أنت" أغلب الشواهد التي وردت في القصيدة ،و في تقديمه ما ينبئ عن مكانته العظيمة في نفس الشابي، وقد أبان تكرار هذا الضمير و تعدده عن اهتمام الشاعر وحرصه على إيصال رسالة التوعية و التحريض على النهوض لبناء المستقبل، وجرى توظيف ضمير "أنت" ضمن جمل اسمية، تفيد الثبوت و الاستقرار، فقد ورد في دلائل الإعجاز بأنها تفيد ثبوت المعنى أو الصفة للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئا فشيئا(3 2)

وحالة الجمود هذه ساقتها إلى ذهن الشاعر أوضاع الخمول والركود التي يعيشها شعبه، فقد وقف الشابي و هو يتفحص أمته على كثير من الأمراض الاجتماعية كـ: الانغلاق على الذات، وعدم السعي لتغيير الواقع المتردي والاستسلام للماورائيات والتشبث بالقيم البالية..ويتواتر الاهتمام بالمخاطب في قصيدة الشابي وهوما يؤكد حرص الشاعر على التبليغ و التأثير- من خلال الإشارة إليه بالضمير المستتر في سياقات عديدة من القصيدة ،و يمكن أن نشير إلى الأفعال الآتية:

لم تضطرب، لم تتألم، أما تحس، أما تشدو، أما تشتكي، أما تتكلم..

وقد ورد مرتبطا بالنهي تارة و بالعرض، تارة أخرى ،في حين جرى ارتباطه في سياقات أخرى بالقوة الإنجازية للأمر مثلما تبينه الأفعال الآتية: الزم ، اعبد ، اذكر ، احذر، تمل ، تغزل، خل، اغضض حاذر غادر ...

كما أشار في سياقات أخرى للمخاطب بالضمير المتصل، مثلما يظهر ذلك في الكلمات الآتية: قبلك، روحك، فنك حواليك، حولك، فوقك، أوشكت، بك، ناشتك، أيامك عمرك، أيامك...

4-2 الإشاريات الزمانية:

تمثل الإشارات الزمانية عناصر، تدل على زمن محدد بسياق قياسا إلى زمن التكلم ،إذ إن زمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية في الخطاب، فإذا لم يعرف هذا الزمان ،التبس الأمر على المتلقي ،وقد تدل الإشارات الزمانية على الزمنين :الكوني السنوات، الأشهر ، الأيام الساعات الفصول، و تدل على الزمن النحوي كالماضي أو المضارع،" فالماضي يضع الحدث في نقطة زمنية سابقة عن زمني التكلم بينما المضارع ، يضع الحدث في نقطة زمنية ليس سابقة عن زمن التكلم"(24)

تهيمن الإشاريات الزمنية الدالة على الكون على لغة القصيدة ويعود ذلك إلى نزوع الشاعر الرومنسي و إحساسه الكبير بالزمن وبهم البقاء والزوال، فالزمن كما يصور الشابي في هذه القصيدة يتغير و الفصول تدور و العواصف تهب ،لتعلن عن حركة الحياة، ولكن شعبه مستسلم، ومقيم على حالة واحدة حتى مل نهر الزمان أيامة الميتة وأنقاض عمره المتهدم إنه كما يبرزه الشابي لا ميت، ولا حي بل كائن لا يفهم إذ يقول(25)

قد مشت حولك الفصول و غنتك * فلم تبتهج ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف و الأنواء * حتى أوشكت أن تتحطم.

إضافة إلى الإشاريات الواردة في البيتين السابقين وظف الشاعر إشاريات زمنية (كونية) أخرى مثل: الزمان، أيامك، أيام ، الزمن الربيع الليل، الفجر، صباح ... كما تحضر ألفاظ ذات دلالة

زمنية ك: عمر، حياة، شيخ، شباب قديم، أمس، أفق، الماضي، الغابر.. كما نوع – مثلما سبق وأن أشرنا- من زمن الفعل، فتراوح بين الماضي والحاضر المنفتح على المستقبل وهو يقرأ ما بين أسطر هذه القصيدة التي يظل فيها الشاعر كالجبار يحدق في صباح شعبه الجديد.

4-3 الإشاريات المكانية:

يقصد بالإشاريات المكانية مختلف العناصر التي تدل على المكان ،أو تشير إليه و تمثلها بوجه عام ظروف المكان ومختلف اللواحق (أسماء الإشارة) التي تشير إلى مكان يتطلب أن تشمله دلالة المتكلم ويدركه المخاطب و من تجلياتها في القصيدة: الظرف (حواليك، حولك، فوقها، هناك بين، خلفها.. وكذا الأسماء الدالة على مكان محدد: كالقبر، الوادي، النهر، قبور، بيت، الروض الكون، الأرض ، الوجود الشعاب مسكنا، المسالك..

وتحضر في القصيدة بعض أسماء الإشارة: ك:هذا (أي عيش هذا.. وهذا داء الحياة الدوي، يختارها الشابي ،لأنها تنسجم و الرؤية السائدة في القصيدة، و يستثمرها لما تنطوي عليه من طاقة من شأنها أن تعين المخاطب على النهوض و التحدي.

تعتمد هذه الإشاريات على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه(26) أي بالسياق المرجعي لعملية التواصل (التخاطب) و بطرفي العملية (الشاعر و المتلقي)، و بذلك تكمن تداوليتها في أن الشاعر أراد لها المحافظة على طاقاتها الدلالية مع إلباسها في بعض السياقات لبوسا مجازيا انزياحيا.

خاتمة:

خلص البحث في موضوع تداولية الخطاب الشعري لدى الشاعر أبى القاسم الشابي، من خلال القصيدة الأنموذج "إلى الشعب" إلى جملة من النتائج نوجزها في الآتي:

* يرتبط مفهوم الشعر لدى الشابي بالمجتمع والحياة، فهو فعل، وسلوك، وهو رسالة سامية ينهض بها الشاعر لتوعية شعبه، وتحريضه على الفعل، فحياة الشعوب في نظره، ترتبط بالفعل، فإذا ما قعدت واستكانت عن الفعل والتفاعل في الوجود والتاريخ واكتفت بالعيش البسيط تحولت إلى موت.

*يولي الشاعر عناية خاصة لأحوال المخاطب، وهذا ما تبرزه مختلف البنى اللغوية في القصيدة بدءا بعتبة العنوان، وقد بدا حريصا على إقامة دعائم العلاقة بينه وبين متلقيه ،من خلال توظيفه المتعدد لضمير المخاطب "أنت"الذي جرى توظيفه متصلا على الأغلب بالأمر والنهي

* تشيع في نص القصيدة الأفعال الإنجازية: الأمر الاستفهام والنداء والتقرير ويتعدد توظيفها، وهي أفعال أسهمت بما دعمها به الشاعر من: مجازات، تكرار، نعوت، إضافات، توكيدات.. في بناء الفعل الإنجازي الأكبر المتمثل في فعل التوعية والإصلاح ،الرامي إلى تحرير المخاطب، وتخليصه من حالة اليأس والاستسلام والشعور بالانهزامية

* وظف الشابي الإشاريات الشخصية والزمانية والمكانية، حيث الحضور الرمزي لعناصر الطبيعة والكون: الرياح العواصف، الأنواء، الربيع الصباح...كرموز شفيفة للحياة، في حين يغدو الشعب المستسلم في القصيدة رمزا للموت والفناء.

– إلى جانب القيم التداولية المشار إليها فيما تم تناوله من عناصر، تحضر في قصيدة الشابي قيما أخرى، يصعب الإلمام بها في هذه المقاربة، وهي في مجملها ذات أبعاد تداولية، ترمي إلى تجليه مقاصد الشاعر والتأثير في المخاطب، وتعديل مواقفه.

الهوامـــش:

1- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، دار الجيل، بيروت د.ط. (ت) ص 153
2- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية مصر ط1 2001، ص 49.
3- أبو القاسم الشابي، أغاني الحياة، ص 196.
4- المصدر نفسه ص نفسها
5- المصدر نفسه ، ص 197.
6- المصدر نفسه، ص 198.
7- عبود الامراني، الأساليب الإنشائية في العربية، درا المناهج، للنشر و التوزيع عمان، الأردن ط1.2008، ص 61.
9- المصدر نفسه ص 198.
10- المصدر نفسه ص 194 ص 195
11- عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النهضة للطباعة و النشر بيروت لبنان 1974 ص 118.
12- أبو القاسم الشابي/ أغاني الحياة ص 195.
13- ينظر محمود أحمد نحلة: أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 80.

14- أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة ص 194 ص 195
15- المصدر نفسه ص 196
16- المصدر نفسه ص 197 ص 198.
17- المصدر نفسه ص 196.
18- المصدر نفسه ص 197.
19- المصدر نفسه ص 198.
20- عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي (في ضوء النظرية التداولية) منشورات الاختلاف الجزائر. ط1. 2003 ، ص 68.
21- ينظر الأزهر الزناد: نسيج النص(ما يكون به الملفوظ نصا) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (د.ط) ص 116.
22- عبد الهادي الشهري: إستراتيجيات الخطاب(مقارنة لغوية تداولية) دار الكتاب الجديد بيروت ط1 2004 ص 97.
23- ينظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تج عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة (ط1) 1969 ص 134 و ما بعدها
24 –محمود أحمد نحلة، أفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر ص19
25- عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 22
26-أبو القاسم الشابي: أغاني الحياة ص194
27- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في الدرس اللغوي المعاصر ص 22.